

صفات عباد الرحمن

١١ - التجاوب مع آيات الله

• الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

لازلنا نعيش في رحاب القرآن ، في صحبة عباد الرحمن ، الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه ، وأثنى عليهم ، وشرفهم بالإضافة إلى ذاته المقدسة .
ووقفنا في أوصاف عباد الرحمن عند قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (١) .

هذه صفة من صفات عباد الرحمن : التجارب مع آيات الله ، قلوبهم مفتوحة ، وعيونهم وأذانهم مع هذه الآيات ، لا يقعون عليها وقوع الصم ولا العميان ، ولكن لهم أذان صاغية ، وعيون راعية ، وقلوب واعية .

ولكن ما هي آيات الله ؟

آيات الله نوعان : آيات تكوينية ، وآيات تنزيلية .

الآيات التكوينية : هي آيات الله في الكون ، آيات الله في الأنفس والآفاق ، آيات الله التي بثها في كل مكان لترشد الناس إليه ، وتدلهم عليه ، كما قال القائل :

فيا عجباً كيف يُعصى الإله أو كيف يججده الجاحد ؟

ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد

وفي كل شيء له آية تدلّ على أنه الواحد

آيات الله مبثوثة ، وعباد الرحمن وأهل الإيمان يتجاوبون معها ، كما قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢) .

(٢) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .

(١) الفرقان : ٧٣ .

آيات الله الآفاقية والأنفسية . . آيات الله في النفس : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تَبْصُرُونَ ﴾ (١) ، وفي الآفاق . . في السماء والأرض ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٣) ، ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

الذين ينظرون إلى هذه الآيات بأعين عُمى ، وقلوب غُلف ، وآذان صُم ، لا ينتفعون منها بشيء ، خُتم على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، فهم صُمُّ بكمٍّ عُمى لا يرجعون ، ولا يعقلون .
هذه آيات الله الكونية الآفاقية .

وهناك آيات الله التنزيلية ، التي أنزلها الله على رسوله : آيات الوحي ، التي ختمها الله بالقرآن الكريم ، وتجلّى الله لعباده في كلماته ، التي أنزلها على رسوله محمد ﷺ ، فهو يتعرف إلى عباده بهذه الكلمات من النور ، أو بهذا النور من الكلمات .

أنزل الله على عبده ورسوله محمد هذا القرآن ، ليدلّ الناس عليه ، ليفتح قلوبهم به : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي ، تَقَشَّعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (٥) .

أنزل الله هذا القرآن العظيم ، فيه صفاته ، وأفعاله ، فيه أسماؤه الحسنی وصفاته العليا ، فيه صفات المؤمنين وصفات الكافرين والمنافقين ، فيه بيان مصاير هؤلاء وهؤلاء ، فيه ذكر الآخرة والجنة والنار ، فيه الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، فيه الأمور والنهي ، والحكم والأمثال والقصص والمواعظ ، وصدق الله العظيم حين يقول : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٦) .

هذا القرآن آيات الله ، أعجز بها البشر أن يأتوا بمثلها ، أو أن يأتوا بعشر سور

(٢) الذاريات : ٢٠ .

(٤) يونس : ١٠١ .

(٦) النحل : ٨٩ .

(١) الذاريات : ٢١ .

(٣) الأعراف : ١٨٥ .

(٥) الزمر : ٢٣ .

من مثل هذا القرآن أو أن يأتوا بسورة مثله ، ولكنهم غلبوا ، وانقطعوا وحقّت عليهم كلمة الله : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١) .

كان القرآن هو الآية العظمى ، والمعجزة الكبرى لمحمد ﷺ ، كانت آيات الأنبياء من قبل آيات حسية ، كونية ، ومن شأن الآيات الكونية والحسية ، أن تنفذ وتنتهى بمجرد وقوعها ، فلولا أن القرآن أخبرنا بأن موسى - عليه السلام - انقلبت العصا له حية ، وأن عيسى - عليه السلام - أبرأ الأكمه والأبرص ، ما عرفنا شيئاً عن ذلك ، فهي أصبحت معجزة تاريخية .

أما القرآن فهو معجزة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأنه معجزة علمية أدبية عقلية ، ولهذا لما طلبوا من النبي ﷺ آية من الآيات الكونية ، قال لهم : ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) ، القرآن آية كافية ، لكل من كان له عقل وكل من كان في صدره قلب : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٣) .

فهذا القرآن هو معجزة رسول الله الدائمة ، وآيته الباقية ، ضمن الله كلماته الإعجاز ، فهو يدخل إلى العقول والقلوب بغير استئذان ، كتاب ميسر للذكر ، يفهمه الخاص والعام ، كل على قدر فهمه : ﴿ فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةً بِقُدْرِهَا ﴾ (٤) ، ﴿ وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴾ (٥) .

سمعه المشركون فتأثروا به ، وقال قائلهم : والله إن لهذا الكلام لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلى ، وإنه ليس من كلام الجن ولا من كلام البشر .

سمعه الجن فأثر فيهم ، وقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَكُنْ نُشْرِكُ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (٦) ، ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا

(١) الإسراء : ٨٨ . (٢) العنكبوت : ٥١ .

(٣) سورة ق : ٣٧ ، وأولها : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ * ﴾ .

(٤) الرعد : ١٧ . (٥) القمر : ١٧ .

(٦) الجن : ١ ، ٢ .

إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ .

سمعه جماعة من النصارى فدمعت أعينهم ، وخشعت قلوبهم ، وآمنوا بالله ورسوله ، هم الذين قال الله فيهم : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ، وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٢﴾ .

هذا هو القرآن ، يسمعه المؤمنون فتوجل القلوب ، وتدمع العيون ، وتخضع الأفتدة ، كما وصف الله المؤمنين الصادقين بقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٣) .

المؤمنون يسمعون القرآن فيزداد إيمانهم ، والمنافقون والزائغون يسمعون القرآن فيزيدهم رجساً على رجسهم والعياذ بالله : ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٤﴾ .

ولذلك كان بعض الصحابة يقول : ما من أحد يجالس القرآن إلا وخرج بزيادة أو نقصان ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٥) ، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٦) . لا يسمعون ولا يعقلون ، هذا شأن الناس مع القرآن .

ففس نفسك من أي الناس أنت ؟ من أي الأصناف أنت مع القرآن ؟ هل يزداد

(١) الأحقاف : ٢٩ ، ٣٠ . (٢) المائدة : ٨٣ ، ٨٤ .

(٣) الأنفال : ٢ . (٤) التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٥) الإسراء : ٨٢ . (٦) فصلت : ٤٤ .

إيمانك ؟ هل تزداد خشيتك ؟ هل يتحرك قلبك ؟ هل تدمع عينك ؟ أم أنك تقرأ القرآن كما تقرأ كلام الناس ، لا تتأثر ولا تتفعل ؟

الله تعالى وصف أناساً من أهل الكتاب بقوله : ﴿ . . . إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (١) .

كان ابن عباس يقول : إذا قرأتم سجدة (سبحان) (٢) ، فلا تعجلوا بالسجود . . . ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه !

إن على الإنسان المؤمن أن يكون مع القرآن متفتح القلب ، متفتح الأذن ، متفتح العقل ، ولا يقرأه قراءة المنافقين ، أو يسمعه سماع المنافقين ، الذين قال الله في شأنهم : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا ﴾ لم يفهموا ولم يعقلوا ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴿ (٣) .

هناك المنافقون ، وهناك الكفار المحجوبون : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا * . . . ﴾ (٤) .

على المؤمن أن يفتح قلبه للقرآن ، أن يهتك حجب الغفلة والشهوة والكبر عن قلبه ، فهذه الحجب هي التي تمنع الفهم للقرآن ، والتأثر به .

الغفلة : أخطر ما يحجب القلب عن الرب ، كما قال تعالى : ﴿ . . . وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (٥) ، ﴿ . . . أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٦) ، الغافلون عن الله . . . عن الآخرة . . . عن المصير . . . عن رسالة الإنسان في هذه الحياة .

(١) الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩ .

(٢) أي آية السجدة التي في سورة (الإسراء) ، وقد سميت سورة (الإسراء) سورة

(سبحان) لأنها افتتحت بهذه الكلمة .

(٣) محمد : ١٦ .

(٤) الإسراء : ٤٥ ، ٤٦ .

(٥) الكهف : ٢٨ .

(٦) الأعراف : ١٧٩ .

الشهوة : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ (١) ، ذكر الله هذا الصنف بعد صنف آخر أتى عليه ، بعد أن ذكر من ذكر من النبيين ، قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (٢) .

الكبر : كما قال الله تعالى : ﴿ سَاءَ صَرَفُ عَنْ آيَاتِي ﴾ [يصرفهم الله عن فهم آياته والتأثر بها] الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا . . . ﴿ (٣) .

على المؤمن إذا أراد أن يقرأ القرآن أن يفتح عينه وأذنه وقلبه ، أن يرتل القرآن ترتيلاً ، أن يحاول التفهم والتدبر في هذا الكلام الإلهي ، فإن الله أودع فيه أسراراً وحكمه .

القرآن نزل ليتدبر : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٤) ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٥) ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٦) ، فلا بد من التدبر .

تدبر القرآن حتى تحاول أن تتأثر به ، فبعد التدبر يكون التأثر .
تجاوب مع كلام ربك إليك ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدَّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ . . . ﴾ (٧) ، لو عقل الجبل لتصدع وخشع من هذا القرآن .

ولكن بعض القلوب أشد من الجبال والصخور والحجارة ، كما وصف الله قلوب بني إسرائيل : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . . . ﴾ (٨) .

- | | |
|---------------------|-------------------|
| (١) مريم : ٥٩ . | (٢) مريم : ٥٨ . |
| (٣) الأعراف : ١٤٦ . | (٤) سورة ص : ٢٩ . |
| (٥) محمد : ٢٤ . | (٦) النساء : ٨٢ . |
| (٧) الحشر : ٢١ . | (٨) البقرة : ٧٤ . |

حاول أن تتدبر القرآن وتتأثر به ، قال محمد إقبال رحمه الله : ما نفعني وصية كما نفعني وصية لأمي ، قالت لي وأنا صغير : يا بني اقرأ القرآن كأنما عليك أنزل .

وقال بعض السلف : كنت لا أجد للقرآن حلاوة ، حتى من الله عليّ ، فأصبحت أتلو القرآن كأنني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه ، حتى رقاني الله درجة ، فأصبحت أقرأه كأنني أسمعه من جبريل يليقه على رسول الله ﷺ ، ثم رقيت درجة أعلى وأرفع ، فصرت أقرأه كأنني أسمعه من المتكلم به عز وجل .

درجات بعضها فوق بعض .

حاول أن تقرأ القرآن قراءة من يشفع له القرآن يوم القيامة ، في الحديث : « اقرأوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » (١) .

بعض الناس يشفع لهم القرآن ، ويشهد لهم القرآن ، وبعض الناس يتلون القرآن والقرآن يلعنهم ، هكذا قال بعض السلف (٢) : (ربّ تال للقرآن والقرآن يلعنه) ، لأنه يقرأ : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) وهو من الظالمين . . . ﴿ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٤) وهو من أهل الكذب . . . « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » وهو من الذين يقولون مالا يفعلون والعياذ بالله .

اقرأ القرآن قراءة المتدبر . . المتأثر . . الذي يقرأ للعمل لا لمجرد المتعة .

كان ابن مسعود يقول : أنزل القرآن عليهم ليعملوا به ، فاتخذوا دراسته

(١) رواه مسلم عن أبي أمامة الباهليّ ، وقامه ، « اقرأوا الزهراوين : البقرة ، وسورة آل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان - أو غيايتان - أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة » المتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان : ٧٨٠ ، ٨٠٦ .

(٢) هو الصحابي الجليل : أنس بن مالك ، كما نقل عنه الغزالي في الإحياء (١ / ٢٧٤ ط . دار المعرفة - بيروت .

(٣) هود : ١٨ . (٤) النور : ٧ .

عملاً ، إنّ أحدكم ليقراً القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يُسقط منه حرفاً ، وقد أسقط العمل به (١) .

لا يكفي أن تقرأ القرآن ، ولا أن تحفظ القرآن ، وإنّما المهمّ : أن تعمل بالقرآن ، هكذا كان الصحابة ، وهكذا كان السلف ، كانوا يحفظون السورة لا يجاوزونها حتى يتقنوها علماً وعملاً ، وتطبيقاً على أنفسهم . قال الحسن : كان من قبلكم يعتبرون القرآن رسائل من ربّهم إليهم ، يقرأونها بالليل وينفّذونها بالنهار .

ماذا تفعل حينما تأتيك رسالة من حبيب أو صديق ؟ إنّك تقرأها بعناية ، وتحاول أن تعرف كلّ ما فيها حرفاً حرفاً ، وأن تنفّذ ما طلبه منك إن كان له أهمية عندك ، فماذا تفعل بما يطلب الله تعالى منك ؟ .

إنّنا في حاجة إلى أن نقرأ القرآن ، قراءة المؤمنين الواعين الخاشعين ، لا قراءة الغافلين ، ولا قراءة المستكبرين ، ولا قراءة الجاحدين ، ولا قراءة الذين في قلوبهم مرض .

إنّنا في حاجة إلى أن نسمع القرآن ، لنتخذ منه نبزاً لحياتنا ، لنغيّر به حياتنا كما غير الصحابة به حياتهم .

أجل ، ما الذي غير حياة الصحابة ؟ إنّ القرآن ، إنّ الذي أحدث ذلك الزلزال النفسي والاجتماعي في الحياة العربية ، وغير الأنفس تغييراً كلياً .

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ وسأله أن يقرئه القرآن ، فقرأ عليه بعض المَفْصَل - أواخر القرآن - حتى وصل إلى سورة الزلزلة ، وفي آخر السورة قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ (٢) ، فقال الرجل : حسبي يا رسول الله ، لا أبالي أن أسمع غيره لم الآيتان وضعتا له القاعدة والقانون : إنّ الجزء من جنس العمل ، وعلى قدر العمل ، ولو كان مِثْقَالَ الذرّة ، خيراً أو شراً . فعجب الصحابة من رجل لا يريد أن يستزيد من القرآن ، فقال النبي ﷺ : « انصرف الرجل وهو فقيه » ما دام حسبه آية واحدة ، وفي قصّة مماثلة قال : « أفلح الرويجل ، أفلح الرويجل » (٣) ما دام قد فهم هذا .

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (١ / ٢٧٥) ط . دار المعرفة - بيروت .

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

(٣) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١ / ٢٨٧) : حديث =

كان الإمام الشافعي يقول : إن في القرآن سورة وجيزة ، لو عمل بها الناس لكفّتهم ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) .

هل قرأنا القرآن - أيها الإخوة - كما ينبغي ؟ هل استمعنا إليه كما ينبغي ؟ هل قمنا بحقه كما ينبغي ؟

نحن نحمد الله أن القرآن أصبح يتلى في الليل وفي النهار ، ولكن من منا يسمع القرآن ليتدبّر ويعمل به ؟ من منا يتأثر بالقرآن إذا سمعه ؟ يقول النبي ﷺ : « اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » (٢) ، إذا لم يحضرك البكاء فتكلّف البكاء . . . تحزن (٣) ، وإذا لم تجد البكاء فابك على نفسك أنك لا تجد هذه العين الدامعة .

سأل عبد الله بن عروة بن الزبير جدّته أسماء بنت أبي بكر - ذات النطاقين - قال لها : يا جدّة كيف كان أصحاب النبي ﷺ إذا سمعوا القرآن أو قرأوه ؟ قالت : يا بنيّ كانوا كما نعتهم الله عزّ وجلّ ، تدمع الأعين ، وتقشعرّ الجلود ، وتخضع القلوب .

= « الرجل الذي جاء ليتعلم فانتهى إلى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ فقال يكفني هذا وانصرف ، فقال النبي ﷺ : انصرف الرجل وهو فقيه » أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن بان والحاكم وصحّحه من حديث عبد الله ابن عمرو ، قال : « أتى رجل رسول الله ﷺ فقال أقرئني يا رسول الله . . . الحديث » وفيه : « فأقرأه رسول الله ﷺ إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهما أبدا ، ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ : أفلح الرويجل أفلح الرويجل » . (١) العصر : ١ - ٣ .

(٢) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١ / ٢٧٧) : أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيد .

(٣) ووجه إحضار الحزن أن يتأمّل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ، ثم يتأمّل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبيكي ، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإنّ ذلك أعظم المصائب (من كلام الإمام الغزالي في الإحياء : ١ / ٢٧٧) .

هكذا كانوا ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الناس إذا سمعوا القرآن ، أمّا أن يُقرأ القرآن لمجرد الطرب . . لمجرد إمتاع الأسماع ، فليس هذا هو المطلوب .
أمّا أن يكون القرآن نسمعه ونحن لاهون ، ونحن عنه غافلون ، لا نقرأه لنعمل ، ولا نقرأه لنحيي به أنفسنا ونحيي به مجتمعنا ، فما هذا من شأن القرآن .
ليس هذا هو القرآن الذي أحدث التغيير والزلزلة في المجتمع الإنساني الأول .

ولهذا ليس عجباً أن نجد إذاعات غير المسلمين - في بلاد الكفر - تذيع القرآن !

لا غرو أن تسمع القرآن من إذاعة لندن ، ولا غرو أن تسمع القرآن من إذاعة إسرائيل ، لأنهم مطمئنون أن القرآن لم يعد يُحرك فينا ساكناً أو ينبّه منا غافلاً .
لو قرأنا القرآن وسمعناه كما كان الصحابة والسلف الأول ، لغير ما بأنفسنا . .
لأحدث فينا تلك الثورة الروحية العظيمة . . لجدّد إيماننا من جديد . . لجعلنا خير أمة أخرجت للناس .

نحن في حاجة إلى أن نحدّد موقفنا مع القرآن :
هل نحن متجاوبون مع كتاب الله ؟

إنّ الله سيسألنا يوم القيامة عنه ، وسيكون شاهداً لنا أو علينا ، نخشى أن يقول القرآن : يا ربّ هؤلاء أهملوني ، حفظوا حروفي وضيعوا حدودي ، نخشى أن يقول الرسول : ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (١) ، لم يهجروا قراءته ، ولكن هجروا تطبيقه والعمل به ، كانوا يقرأونه على الأموات في المقابر ، ولا يحكمونه في الأحياء في المحاكم .

أصبح كتاب الله مهجوراً ، وأصبح العمل به مضيّعاً ، إنّ الله سائلنا عن هذا القرآن .

عباد الرحمن هم أولئك المتجاوبون مع آيات القرآن ، مع آيات الله - هم قرآنيون يعيشون مع هذا القرآن ، يطبقونه على أنفسهم ، لهم في رسول الله ﷺ

(١) الفرقان : ٣٠ .

(١١ - خطب الشيخ القرضاوى)

أسوة حسنة ، فقد سُئِلَت عائشة رضي الله عنها عن خلقه عليه السلام فقالت : « كان خلقه القرآن » ^(١) ، من فتح المصحف عرف أخلاق النبي عليه السلام . . أنه كان صورة تطبيقية ، كان مثلاً مجسماً ، كان قرآناً حياً يسعى بين الناس على قدمين ، كان مصحفاً مفسراً ، لا يفسر بمجرد الكلام بل بالعمل . . بالسلوك . . بالتطبيق . . بالتعامل مع ربه . . مع أهله . . مع أصحابه . . مع أعدائه .

ليكن كلّ مؤمن - يحاول أن يكون من عباد الرحمن - قِبساً من هذا التور المحمديّ ، ليكن له في رسول الله أسوة حسنة ، وليكن خلق كلّ منا : القرآن .
نسأل الله عزّ وجلّ أن يوفّقنا ويجعلنا من أهل القرآن ، ويجعل القرآن شافعاً لنا يوم القيامة .

استغفروا الله يغفر لكم ، وادعوه يستجب لكم ، إنّه هو الغفور الرحيم .

● الخطبة الثانية :

أما بعد فيا أيّها الإخوة :

أرسلت إليّ إحدى الأخوات ورقة تقول : في إحدى الجمعيات الماضية ، خرجت إحدى المصليات ، وكانت تلبس لباساً غير كامل الاحتشام ، لا يتفق مع الأدب الإسلامي الذين فرضه الله تعالى على المرأة المسلمة .
وأنا أستغرب هذا في الحقيقة ، فالمسلمة التي تأتي إلى هذا المسجد ، ولا شكّ أنّها تريد وجه الله عزّ وجلّ وتريد أن تستمع وتنتفع ، ولعلها - غالباً - في فترة انتقال ، لعلّ هناك نوعاً من المسلمات يريد أن يُغيّر حياته ، فهو في بداية الطريق .
ولذلك نرجو من الأخوات المؤمنات الملتزمات ، ألا يُسارعن بالإنكار على هذا النوع ، حتّى لا يهربن من مثل هذه المواقف ، دعوهنّ ، دعوا مثل هذه الأخت تحضر مرةً ثمّ مرةً ، حتّى يفتح الله قلبها ، ويشرح صدرها ، ويهديها إلى التي هي أقوم .

لا بدّ أن نأخذ الناس بالتدريج ، لا بد أن نتعلم الحكمة والموعظة الحسنة ،

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، عن عائشة رضي الله عنها (فيض القدير : ٥ / ١٧٠)

الناس . جميعاً ليسوا في مرتبة واحدة ، إن الله وصف الأئمة المصطفاة التي تتلقى القرآن بقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (١) ، درجات ومراتب يجب أن نراعيها ، فمن كان في أول الطريق فلنسامحه حتى يرقه الله سبحانه وتعالى - بهداية منه - إلى مرتبة أعلى ، ثم مرتبة أعلى .

هناك بعض المقصرين والمقصرات علينا أن نأخذهم بالرفق ، و « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ولا يُنزع من شيء إلا شانه » (٢) ، و « إن الله يحب الرفق في الأمر كله » (٣) ، علينا أن نأخذهم بالرفق وننصحهم ، ليرتقوا من منزلة إلى ما هي أعلى منها .

بعض الناس (ظالم لنفسه) كما أشارت الآية ، أى أنه يُقصر في بعض الواجبات ، ويرتكب بعض المحرمات ، ولكنه قد ينتقل إلى المرتبة الأعلى ، وهي مرتبة (المقتصد) ، وهو الذى يقف عند حدود أداء الواجبات وترك المحرمات ، لا يزيد على الواجب شيئاً ، ولا يزيد على ترك المحرم .

ولكنه قد يرتقي إلى مرتبة أعلى ، فيصبح (سابقاً بالخيرات بإذن الله) ، لا يكتفي بأداء الواجبات ، بل يفعل السنن ، ويفعل المستحبات ، ولا يكتفي بالوقوف عند ترك المحرمات ، بل يترك المشتبهات ، ويترك المكروهات ، بل يترك بعض الحلال حذراً من الوقوع في الحرام ، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ، حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس » (٤) .

إنها مراتب ودرجات ، فلا تُطالبوا الناس أن يكونوا كلهم في درجة واحدة ،

(١) فاطر : ٣٢ .

(٢) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها (شرح السنة للبغوي : ١٣ / ٧٥ الحديث ٣٤٩٣) .

(٣) أخرجه البخارى ، ومسلم ، عن عائشة رضي الله عنها (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٣ / ٧٣) .

(٤) رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، ورواه ابن ماجه ، والحاكم ، عن عطية بن عروة السعدي ، ورمز له السيوطي بالصحة (فيض القدير : ٦ / ٤٤٣ برقم ٩٩٤٢) .

ولا تطالبوا المبتدئ بما يُطالب به المتوسط ، ولا تُطالبوا المتوسط بما يُطالب به المنتهي ،
﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا ، وَيُوفِّيهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١) .
نسأل الله أن يتوب علينا جميعا ، وأن يصلح فساد قلوبنا ، وأن يعيننا على
أنفسنا وعلى الشيطان .

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن
عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، . اللهم اغننا
بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عن سواك ، اللهم
انصر الإسلام وأعز المسلمين ، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا ، واجعل كلمة
الذين كفروا هي السفلى ، اللهم انصر إخواننا المجاهدين في كل مكان ، اللهم
واخذل أعداء الإسلام في كل مكان ، اللهم أدلّ دولهم ، وأذهب عن أرضك
سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلا على أحد من عبادك المؤمنين .
﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي
قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .
وصلّوا على نبيكم ﷺ ، فإن الله يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ
عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٤) .
وأقم الصلاة .

* * *

• (٢) آل عمران : ١٤٧

• (١) الأحقاف : ١٩

• (٤) الأحزاب : ٥٦

• (٣) الحشر : ١٠

صفات عباد الرحمن

١٢ - سؤال الله صلاح الأزواج والذرية والإمامة في الخير

• الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

لازلنا في رحاب القرآن ، نعيش في صحبة عباد الرحمن ، هؤلاء الذين أكرمهم الله تعالى فذكرهم في كتابه ، وعدّد أوصافهم ، وبيّن أحوالهم في نهارهم وليلهم ، مع أنفسهم ومع ربهم ومع الناس ، مع النّاحية الإيجابية ، ومع النّاحية السلبية ، مع الأوامر والنّواهي ، فكانت لهم تلك الأوصاف الطّيبة ، التي ذكرها الله تعالى في خواتيم سورة الفرقان .

وبقي من أوصاف عباد الرحمن وصف واحد ، هو قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۖ ﴾ (١) .

ما معنى هذا الوصف ؟

إنّهم يدعون الله تبارك وتعالى ، ويتضرّعون إليه ، ويبتهلون إلى وجهه الكريم ، يسألونه أن يهب لهم من أزواجهم وذرياتهم ما تقرّ به أعينهم ، وتسرّ به قلوبهم ، وتنشرح له صدورهم ، وأن يجعلهم أئمةً وقدوةً للمتّقين .
الدعاء يدلّ على وجهة الإنسان ، من كانت وجهته الدنيا انحصر دعاؤه وطلبه في الدنيا ، ومن كانت وجهته الآخرة فهمه في الآخرة .

ذكر الله لنا مواقف بعض الناس في موسم الحج ، فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ۚ لَّيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

(١) الفرقان : ٧٤ .

حَظٌّ وَلَا نَصِيبٌ | * وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾ ، الأولون مذمومون ، وهؤلاء ممدوحون ، محمودون ، لأنهم جمعوا بين الحسنتين : حسنة الدنيا وحسنة الآخرة .

ومن أراد أن يعرف طموحات المؤمنين وآمالهم ، ومتعلقات قلوبهم ، وإلى أين تتجه أمانيتهم ، فلي تأمل أدعيتهم في القرآن نجد هذه الأدعية تمثل ما يطمحون إليه . . ما يحرصون عليه . . ما يضعونه نصب أعينهم .

فنجد الراسخين في العلم - كما ذكرهم الله في سورة آل عمران يقولون : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٢) .

نجد أولى الألباب - في خواتيم سورة آل عمران - يقولون : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٣) .

نجد الفتية المؤمنات من أهل الكهف يقولون - حينما أواوا إلى كهفهم : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (٤) .

نجد إبراهيم الخليل يتجه إلى ربه ويقول : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (٥) .

هكذا نجد آمال المؤمنين في أدعيتهم .

الإنسان يدعو بما هو مشغول به ، بما يهيم أمره ، ولذلك لو تأملنا أدعية النبي ﷺ ، واستعاذاته - مما استعاذ الله تعالى منه - نعرف فيم يفكر ، وإلام كان يطمح ، وعلام كان يحرص .

لقد كان من دعائه ﷺ : « اللَّهُمَّ أَوْصِلْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عَصْمَةٌ أَمْرِي ،

(١) البقرة : ٢٠٠ . (٢) آل عمران : ٨ .

(٣) آل عمران : ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٤) الكهف : ١٠ . (٥) إبراهيم : ٤٠ ، ٤١ .

وأصلح لي دنيائي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، وأجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر » (١) .

كان يدعو بأدعية جامعة ، وكان يستعيز بالله من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق ، كان يستعيز بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، كان يستعيز بالله من الهم والحزن ، ومن العجز والكسل ، ومن الجبن والبخل ، ومن غلبة الدين وقهر الرجال .

فمن هذا وذاك نعرف : كيف يفكر المسلم ؟ وفيه يطمح ؟ وإلام يقصد ؟ وهذا هو شأن دعاء عباد الرحمن هنا ، فقد عرفنا منه : فيم يفكرون ؟ وإلام يرنون ؟ وبماذا يدعون ؟

لقد سجل القرآن من أوصافهم قبل ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (٢) فدل هذا الدعاء على اهتمامهم بأمر آخرتهم ونجاتهم من عذاب الله .

وفي هذا الدعاء اهتموا بأمر حياتهم ، ولكنهم لم يهتموا بشهواتهم أو متعهم في هذه الدنيا ، إنما اهتموا بأمر أعظم وأعلى وأبقى .

إن أهم ما دعوا الله سبحانه وتعالى به ، وما حرص القرآن أن يسجله في أوصافهم ، أنهم : ﴿ .. يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٣) أي : أنهم ليسوا مشغولين بأنفسهم وحدها ، إنهم حريصون على أن يمتد الخير والهدى فيمن حولهم ، وأقرب الناس إليهم : أزواجهم وذرياتهم . فهم « .. يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين .. » .

يدعون الله أن يجعل لهم من أزواجهم : من نسائهم ، ومن ذرياتهم : من أبنائهم وبناتهم وأحفادهم ، ما تقرّ به أعينهم ، وإنما تقرّ أعينهم بهم إذا وفّقوا إلى طاعة الله وابتعدوا عن معصية الله ، إذا ساروا في طريق الخير .

إنما تقرّ عين الإنسان المؤمن بامرأة صالحة تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ،

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه (فيض القدير : ٢ / ١٣٧ برقم ١٥١٤) .

(٢) الفرقان : ٦٥ . (٣) الفرقان : ٧٤ .

وتحفظه إذا غاب ، وتعينه على طاعة الله ، تحرضه على الإيمان بالله . . على تقوى الله ، تحذره من المعصية ، ولا تقول له : أأست كفلان وفلان الذين جمعوا الألف والملايين ؟ ما أخيبك من رجل ! تعيره بالفقر فيركب مركب السوء فيهلك والعياذ بالله .

كانت المرأة من نساء السلف الصالح تقول لزوجها - إذا خرج إلى الكسب يضرب في الأرض ويبتغي من فضل الله - يا أبا فلان ، إياك وكسب الحرام ، فإننا نصبر على الجوع والطوى ، ولا نصبر على حر النار وغضب الجبار .

هذه الكلمة من امرأة صالحة تجعل الرجل يتوقف مائة مرة ومرة حينما تراوده نفسه الأمارة بالسوء ، أن يخوض في الحرام ، ويرتكب الموبقات ، ويقبل الرشوة ، أو يأكل أموال الناس بالباطل ، أو يحتكر أقوات الناس ، أو يغلي على الناس أسعارهم ، إلى آخر ما يفعله الناس ليكسبوا من أى طريق .

ما أحوج المؤمن إلى امرأة تقول له : قف عند حدّ الله . . تحرّ الحلال . . اجتنب الحرام . . بل اتق الشبهات : « . . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه . . » (١) « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » (٢) .

المرأة التي تقرّ بها أعين عباد الرحمن هي المرأة الصالحة ، لتي قال عنها ﷺ : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » (٣) ، ليس مجرد المرأة الجميلة ، أو المرأة الغنيّة ، أو المرأة الحسبية النسبية ، قد يكون هذا ممّا يتزوج من

(١) جزء من حديث النعمان بن بشير الذي رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وهو من أحاديث الأربعين النووية (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٠٦ برقم ٩٦٦) .

(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه أحمد وصحّح شاكر إسناده ، ورواه النسائي ، وابن حبان في صحيحه ، ورواه الحاكم بزيادة وصحّحه ، ووافقه الذهبي ، ورواه في موضع آخر وقال الذهبي : سنده قوي ، وهو من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ورواه الطبراني بنحوه من حديث واثلة بن الأسقع ، وهذا الحديث هو الحادي عشر من الأربعين النووية (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ٩٧١ ، ١٧٧٣) .

(٣) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجه بلفظ قريب ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٠ ، الحديث ١٠٩٧) .

أجله الناس ، ولكن أهمّ من ذلك كلّهُ : المرأة المتدينة ، التى تخاف الله ، وتريد لزوجها أن يعيش في دائرة الحلال ، ولأولادها أن يتربّوا في عيشة من حلال .
هذه هي المرأة الصالحة ، إنها كنز عظيم يحرص النَّاس عليه .

جاء في الحديث : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عزّ وجلّ خيراً له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرّته ، وإن أقسم عليها أبرّته ، وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله » ^(١) ثمّ تلا : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ ۝ (٢) فَيَهِى عَابِدَةٌ لِّلَّهِ قَانِتَةٌ تَرَعَىٰ حَقَّ اللَّهِ ، وَهِيَ تَحْفَظُ غَيْبَ زَوْجِهَا : تَحْفَظُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَتَحْفَظُهُ فِي عَرْضِهِ ، وَتَحْفَظُهُ فِي أَسْرَارِهِ ، وَتَحْفَظُهُ فِي مَالِهِ ، وَتَحْفَظُهُ فِي وَلَدِهِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبَ الْإِبِلُ لِمَنْ أَى مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ لِمَنْ صَالِحُ نِسَاءٍ قَرِيشٍ : أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صَغَرِهِ ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ » ^(٣) أَى تحرص على ماله ، ومن حرصها عليه ألاّ يكسب هذا المال إلاّ من حلال ، ولا ينمّي إلاّ بطريق حلال .

هذه الزوجة هي قرة العين لزوجها ، وهى عنصر أساسي من عناصر السعادة في الحياة ، كما قال ﷺ : « من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح » ^(٤) . وعنه ﷺ : « أربع من أعطيهنّ فقد أُعطي خير الدنيا والآخرة : قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وبدناً على البلاء صابراً ، وزوجة لا تبغيه حُبّاً في نفسها وماله » ^(٥) .

(١) رواه ابن ماجه عن أبي أمامة ، ورمز له السيوطي بعلامة الحسن ، الجامع الصغير : ١٤٢ / ٢ (قال المناوي : وليس كما قال فقد ضعّفه المنذري بعلی بن زيد ، وقال ابن حجر في فتاويه : سنده ضعيف لكن له شاهد يدل على إنّ له أصلاً (فيض القدير : ٥ / ٤١٩) .
(٢) النساء : ٣٤ .

(٣) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال المناوي في الفيض : وسببه أنّ النبی ﷺ خطب أمه هانئ فأتذرت بكبر سنّها وأنها أمّ عيال فرفقت بالنبي ﷺ أن لا يتأذي بمسنة ولا بمخالطة أولادها فذكره (فيض القدير : ٣ / ٤٩٢ برقم ٤٠٩٠) .

(٤) جزء من حديث سعد بن أبي وقاص ، قال المنذري : رواه أحمد بإسناد صحيح ، والطبراني والبيهقي ، والحاكم وصححه ، وابن حبان ، وقال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح . أنظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٠ برقم ١٠٩٩) .
(٥) قال المنذري : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وإسناد أحدهما جيّد ، وقال الهيثمي : رجال الأوسط رجال الصحيح (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٠ برقم ١٠٩٨) والحب هو الإثم .

هذا من خير الدنيا والآخرة ، هذا خير ما يكثر الإنسان : المرأة التي تعينه على دينه وتكون عوناً معه على الشيطان ، ولا تكون مع الشيطان عليه فيصبح معه شيطانان : شيطان من داخل نفسه ، وشيطان من داخل بيته .

كانت المرأة من نساء السلف الصالح تحرض زوجها على الجهاد : . على البذل ، ليخرج في سبيل الله ، ليساهم في بناء الحضارة الإسلامية ، وإقامة دولة الإسلام ، وإعلاء كلمة الله في الأرض ، ومقاومة الطواغيت الذين يتربصون السوء بالأمّة الإسلامية .

كانت تحرضه على الجهاد ، فإذا جاء المثبطون يقولون لها : كيف تركك هذا الرجل ؟ ومن أين تأكلين ؟ وكيف تُرزقين الله فتقول لهم - في إيمان الوائقة وثقة المؤمنة - : إنّ أبا فلان - تعنى زوجها - منذ تزوّجته عرفته أكّالاً وما عرفته رزاقاً ، فلئن ذهب الأكّال لقد بقي الرزّاق !

هذه هي المرأة التي تكون قرّة عين ، أمّا المرأة الأخرى فهي من فواقر الدهر ، كما جاء في الحديث : « ثلاثة من الفواقر { أى من المصائب التي تكسر فِقار الظهر } : إمام إن أحسنت لم يشكر ، وإن أسأت لم يغفر ، وجار سوء إن رأى خيراً دفنه وإن رأى شراً أذاعه { الخير يُغطى عليه والشرّ يذيعه في كلّ مكان كأنّه ميكرفون ، لا يصبر على جاره ولا يراعي حقّه } ، وامرأة إن حضّرت أذتْكَ ، وإن غبت عنها خانتْكَ » (١) . والعياذ بالله .

وكما جاء في الحديث الآخر : « المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء » (٢) .

فهذه مصادر النكد في حياة الناس ، في الداخل والخارج .

(١) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، قال ، قال المنذري : رواه الطبراني بإسناد لا بأس به ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه محمد بن عصام بن يزيد ، ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه وبقية رجاله وثقوا (المتقي من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٩٠ - ٦٩١ برقم ١٥٢٩) .

(٢) هو جزء من حديث سعد بن أبي وقاص السابق ، أنظر تخريجه ص : ١٦٩ .

﴿ ٠٠ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ٠٠ ﴾ (١) :

ومن أراد قرّة العين فعلية - من أول الأمر - أن يختار ذات الدين ، التي تقرّ عينه ، وتشرح صدره ، وتعينه في أمر دينه ، كما جاء في الحديث الصحيح : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » (٢) .

أهمّ هذه الأربع التي يحرص الناس عليها : ذات الدين « فاظفر بذات الدين » لتكون عوناً لك ، لتكون معك في معركة الحياة ولا تدعك أبداً .

﴿ ٠٠ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ٠٠ ﴾ :

وكما يدعو الرجال بهذا ، تدعو النساء أيضاً . تدعو المرأة أن يهب الله لها زوجاً صالحاً ، يأمرها بإقامة الصلاة والزكاة - كما كان يفعل إسماعيل عليه السلام ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ (٣) - يدعوها إلى الخير ، ويحذرها من الشر ، وليس ككثير من أزواج هذه الأيام ، الذين لا يهتمهم صلاة نسائهم ولا صيامهم ، ولا يسألون : أقمن حدود الله أم ضيّعنها ؟ بل هناك من الأزواج من ضاع في طريق الشيطان ، ويريد أن يضيع أهله معه .

ما أكثر ما تأتيني الرسائل ، وما أكثر ما تأتيني المكالمات ، تشكو من صنف من الناس ٠٠ من رجل يحرض زوجته على المعصية ، يأمرها أن تقدّم له الطعام في نهار رمضان ، بل تقدّم له الخمر في نهار رمضان .

ما أكثر الأزواج الذين تشكو منهم زوجاتهم ، يشكين من أفعالهم ٠٠ من تركهم الصلوات ، واتباعهم الشهوات ، وارتكابهم الموبقات .

فمما تدعو به أمة الرحمن - أيضاً : أن يهب الله لها زوجاً يقرّ عينها ، يعينها على الطاعة . فإنّ من أعظم الآفات : أن تُبتلى المرأة المؤمنة بزواج لا يخشى الله ، لا ينحني ظهره لله راعماً ، لا يقيم فرائض الله ، ولا يعظّم شعائر الله .

(١) الفرقان : ٧٤ .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والتّسائي ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقوله « تربت يداك » : كلمة معناها الحث والتحريض ، وقيل : هي هنا دعاء له بكثرة المال ، أي : اظفر بذات الدين ، ولا تلتفت إلى المال ، أكثر الله مالك (المستثنى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٢ - ٥٥٣ ، الحديث ١١٠٦) .
(٣) مريم : ٥٥ .

ما أكثر ما نرى هذا في حياتنا !

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ۖ ﴾ . . :

يدعون الله بصلاح الأزواج ، وصلاح الذرية .

إذا كان الإنسان يريد الخير ، فأقرب من يرجو له الخير : زوجته ، وذريته :

أبناؤه . . بناته . . أحفاده ، يرجو لهم الهداية والخير .

سئل الحسن عن (قُرَّةَ الأعين) في هذه الآية : أهى فى الدنيا أم فى الآخرة ؟

فقال : لا والله ، بل فى الدنيا ، وقال عكرمة فى تفسير قرة الأعين : لم يريدوا

بذلك صباحة ولا جمالاً ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين لله .

إن المؤمن لا تقرّ عينه بمجرد أن يكبر أولاده ، ولا بمجرد أن يكسبوا

الأموال . . أن يصبحوا من الأثرياء . . أن يكون فى أرصدتهم الملايين ، ثم يكون

مصيرهم إلى النار وبئس القرار .

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا

النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ ﴾ (١) ، على كل مؤمن أن يقي أهله النار كما يقي نفسه .

قوا زوجاتكم ، قوا أبناءكم وبناتكم ، احموهم من النار ، أبعدهم عن طريق

النار .

أنطمئن يوماً أو يثلج صدرك ، إذا رأيت ولدك وفلذة كبذك فى النار ؟ .

هبة أصبح من أصحاب الملايين أو البلايين ، أو من الكبراء والسلاطين : ما

قيمة هذا إذا انتهى ماله إلى جهنم والعياذ بالله ؟ .

« كلّكم راع ومسؤول عن رعيته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل

راع فى أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن

رعيته ، والخادم راع فى مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلّكم راع ومسؤول عن

رعيته » (٢) .

(١) التحريم : ٦ . وتنتها : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، عن ابن عمر رضي الله عنهما (المتقى من كتاب الترغيب

والترهيب : ٢ / ٥٥٣ ، الحديث ١١٠٨) .

الكل راع ، عليه أن يرمى أمانة الله فيما استرعاه ، و « إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » (١) .

وأقرب ما يسأل الإنسان عنه : أهله . . أولاده . . زوجته . . ابنه . . ابنته .
هؤلاء ماذا صنعت معهم ؟ هل وقيتهم النار ؟ هل علمتهم الخير ؟ هل دعوتهم إليه ؟
هل حذرتهم من الشر ، وبصرتهم بعواقبه وآفاته ؟
﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ، لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ، نَحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٢) .

﴿ . . رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ :
ومما يجعلهم قرّة عين : أن يكونوا بررة ، يعرفون حق آبائهم وأمهاتهم ، كما يعرفون حق الله تبارك وتعالى . فإن من مكدرات الحياة أن يجد الإنسان ابناً عاقاً ، يتعب في تربيته ، ويكدح في السعي عليه ، حتى يصبح شاباً قوياً مفتول الذراعين ، فإذا هو بعد ذلك يتنكر لأهله . . يتنكر لأبيه وأمه ، وقد يتناول عليهما بالقول أو الفعل ، مع أن الله تعالى يقول : ﴿ . . فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ * وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (٣) .

طالما شكّا الناس قديماً وحديثاً من عقوق الأولاد الذين لا يعترفون بالجميل لأهله ، وكثيراً ما يفعل الولد هذا طاعة امرأته ، أو طاعة لشیطانه ، أو طاعة لهواه ، وهذا من أسباب البلاء ، كما جاء في حديث الترمذی : « إذا فعلت أمتی خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء - وذكر منها : وأطاع الرجل زوجته ، وعقّ أمه ، وبرّ صديقه ، وجفا أباه » (٤) .

(١) رواه النسائي ، وابن حبان ، عن أنس رضي الله عنه ، قال الأستاذ القرضاوى : وعزاه في الجامع الصغير إلى النسائي أيضاً ويبدو أنه في « الكبرى » رضي الله عنه لم أجده في مظانه في « الصغير » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٦٢ برقم ١١٤١) ، وقال المناوى : ورواه عن أنس أيضاً البيهقي في الشعب وفيه معاذ بن هشام حديثه في الستة لكن أورده الذهبي في الضعفاء وقال : قال ابن معين : صدوقاً وليس بحجة ، وقال غيره : له غرائب وتفرّدات (فيض القدير : ٢ / ٢٣٧ - ٢٣٨ برقم ١٧٤٥) .
(٢) طه : ١٣٢ . (٣) الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ .

(٤) رواه الترمذی بسند ضعيف عن علي رضي الله عنه . أنظره كاملاً في ص : ١٠٠ .

ليس هذا من شأن الإنسان المؤمن .

شكا أحد الشعراء قديماً ابناً عاقاً له فقال :

غذوتك مولوداً وعُلتك يافعاً تعلّ بما أسدي إليك وتنهل
إذا ليلةً نابتك بالشجو لم أبت لشكواك إلا ساهراً أتملّل
كأنّي أنا المطروق دونك بالذي طُرقت به دوني فعينى تهمل
فلما بلغت السنّ والغاية التي إليها مدى ما كنتُ فيك أوَمَل
جعلت جزائي غلظةً وفظاظَةً كأنك أنت المنعمُ المتفضلُ !

هذا لا يكون قرّة عين أبداً ، إنّما يكون نكداً وغصةً في حلق أبيه .

نكران الجميل شيء يؤذي النفس ، ويجرح القلب ، ولا سيما إذا جاء من
أقرب الناس إليك ، إذا طُعت من أحبّ الناس إليك ، وأعزّهم عليك : من ابنك ،
من بنتك ، من زوجتك ، من أقاربك .

ولهذا سأل عباد الرحمن ربّهم أن يجعل لهم من أزواجهم وذريّاتهم قرّة أعين ،
ويؤدّون حقّ الله ، ويؤدّون حقّ الأبوين : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا
قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ .

هم - أيضاً - أرادوا أن يمتدّ الخير في الناس ، وأن يكون لهم مكان في عالم
الخير والهدى ، وأن يكونوا أئمةً للمتقين ، وهذا طموح لا غبار عليه ، لأنّه ليس
طموحاً يتعلّق بالدنيا ، ولا يتعلّق بالدرهم والدينار ، ولا بالمنصب ، وإنّما يريدون أن
يكونوا قدوة لأهل الخير ، يقتدي بهم الناس ، ولا حرج من أن يسأل المؤمن ربه أن
يكون إماماً في الخير .

والإمامة نوعان : إمامة في الخير ، وإمامة في الشرّ .

والأئمة نوعان : أئمة يدعون إلى الجنّة ، وأئمة يدعون إلى النار والعياذ بالله .
وصف الله أئمة الخير بقوله في بعض رسله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ
بَأْمُرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا
عَابِدِينَ ﴾ (١) .

(١) الأنبياء : ٧٣ .

وقال في جماعة آخرين : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) . فمن أراد الإمامة فعليه أمران : الصبر ، واليقين ، الصبر في مقاومة الشهوات ، واليقين في مقاومة الشبهات ، وبذلك يستقيم فكره ، ويستقيم سلوكه .

هذا شأن أئمة الخير .

أما أئمة الشر فمثل : فرعون وهامان وقارون ، ومن علي شاكلتهم ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ : ولكن أى إمامة هذه؟ إنها إمامة في الشر . . . فى الطغيان .
﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ : ما أكثر الأئمة الذين يدعون إلى النار اليوم ، يدعون بأقلامهم ، يدعون بالستهم ، يدعون بأفكارهم ، يدعون بكتبهم . . . بصحفهم . . . بأقلامهم ومسلسلاتهم . . . أئمة يدعون إلى النار من أجابهم إلى دعوتهم قذفوه فيها ، كما جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه : « . . . دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها ، قذفوه فيها » (٣) .

احرص - أخى المسلم - على أن تكون من عباد الرحمن ، الذين يتطلعون إلى هذه المقامات العلى : ﴿ . . . رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ .

اللهم اجعلنا من هؤلاء ، اللهم اجعل لنا حظًا من هذه الإمامة ، يا رب العالمين .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

❖ ❖

(٢) القصص : ٤١ .

(١) السجدة : ٢٤ .

(٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : « كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني . . . » الحديث ، رواه البخاري في الفتن ، ومسلم في الإمارة (شرح السنة للبخاري بتحقيق شعيب الأرنؤوط : ١٥ / ١٤ - ١٥ برقم ٤٢٢٢) .

• الخطبة الثانية :

أما بعد :

أحبّ أن ألفت أنظار الإخوة المصلّين إلى أنّ الظهر قد بكر الآن ، فعلينا أن نبدأ مبكرين ، ولا يتخلف المصلّي حتى يؤدّن الظهر ويصعد الخطيب على المنبر ، فإنّه بهذا يُحرم أجراً كثيراً .

وقد جاء في الحديث الصحيح : « إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأوّل فالأوّل ، ومثل المهجرّ كمثّل الذي يُهدي بدنةً ، ثمّ كالذي يُهدي بقرة ، ثمّ كبشاً ، ثمّ دجاجة ، ثمّ بيضة ، فإذا خرج الإمام طوّوا صحفهم يستمعون الذكر » (١) .

معنى هذا : أنّ (سجلّ الدوام) قد طوي ، ومن أتى بعد ذلك يُعتبر كأنّه أتى متأخراً عن الموعد ، فيوجه إليه بعض اللوم ، أو على الأقلّ يحرم حين ذلك من أجر التكبير .

فأرجو من الإخوة أن يراعوا هذا إن شاء الله .

اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات ، إنّك سميعٌ قريبٌ مجيب الدعوات .
اللهم أكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا ، وآثرنا ولا تُؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا .

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢) .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٣) .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه بنحوه ، و « المهجر » : هو المبكر الآتي في أول ساعة ، وانظر تعليق الشيخ القرضاوى علي الحديث في كتابه (المتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى : ١ / ٢٤٥ - ٢٤٦ برقم ٣٧٤) .

(٢) البقرة : ٢٠١ . (٣) آل عمران : ٨ . (٤) آل عمران : ١٤٧ .

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (١) .

عباد الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .
وصلُّوا على نبيِّكم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .
وأقم الصلاة .

* * *

(٢) النحل : ٩٠ .

(١) الفرقان : ٧٤ .

(٣) الأحزاب : ٥٦ .

(١٢) - خطب الشيخ القرضاوى

١٣ - حقوق الإنسان في الإسلام

• الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

خلال الأسبوع المنصرم احتفلت الأمم المتحدة واحتفل العالم معها ، باليوم العالمي لحقوق الإنسان ، وذلك بمناسبة مرور أربعين عاماً على إعلان (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) .

المسلمون أولى الناس بحقوق الإنسان :

ونحن المسلمين أول من يحتفل بحقوق الإنسان ويهتمّ بها ، فالإسلام - قبل أن يعلن الغرب موثيقه عن حقوق الإنسان ، سواء من الأمم المتحدة أم من غيرها من الهيئات والثورات - قد قرّر للإنسان حقوقه منذ أربعة عشر قرناً أو تزيد .

الإسلام يوازن بين الحقوق والواجبات :

لم يكن الناس يعرفون أنّ لهم حقوقاً قبل الإسلام ، كلّ ما يعرفونه : أنّ عليهم واجبات ، ولا يدرون أنّ لهم حقوقاً ، فجاء الإسلام وقرّر أنّ للإنسان حقوقاً تُرعى ، كما أنّ عليه واجبات تُؤدّى ، فكلّ واجب يقابله حقّ ، كما أنّ كلّ حقّ يقابله واجب .

ولهذا قامت التكاليف في الإسلام على هذين الأمرين : الواجبات والحقوق ، وهذا ما يخالف فيه الإسلام فلسفة الغرب الآن .

فالغرب ينادي دائماً بالحقوق ولا يهتمّ كثيراً بالواجبات ، حقوق الإنسان .. حقوق الأطفال .. حقوق العمّال .. حقوق المرأة ، حقوق حقوق ، وكأنّ الإنسان مُطالبٌ فقط بما له ، وليس مُطالباً بما عليه .

إذا أدت الواجبات فقد رعت الحقوق :

الإنسان في الشريعة الإسلامية مخلوق مُكلّفٌ مُطالبٌ مسؤول ، أكثر ممّا هو مُطالبٌ سائل ، الإنسان في الغرب أبداً يقول : ماذا لي ؟ أمّا في الإسلام فإنّه يجب أن يقول : ماذا عليّ ؟

وإنّما تُرعى الحقوق حقاً ، يوم تُؤدّى الواجبات ، فحقّ كلّ إنسان هو واجب

على غيره : حقّ الولد في الرعاية المادية والمعنوية والتربية الحسنة هو واجب على أبويه ، وحقّ الأب في البرّ والإكرام والرعاية عند العجز أو الشيخوخة هو واجب على أولاده ، وحقّ الفقير في كفايته من العيش هو واجب على الغني ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (١) .

وحقّ المحكوم في العدل وتكافؤ الفرص واجب على الحاكم . . . وهكذا .

هذه الحقوق إنّما تُرعى حينما تُؤدى الواجبات ، فهذه فلسفة الإسلام الذي يمزج بين الواجب والحقّ ، بل يؤكّد كلّ التأكيد ، ويركّز كلّ التركيز على أداء الواجب ، فإنّما تضيع الحقوق حينما تضيع الواجبات .

تقرير الحقوق لأهلها دون مطالبة منهم :

جاء الإسلام وقرّر أنّ للناس حقوقاً ، ولكلّ إنسان حقوقاً . قرّر ذلك دون أن تقوم ثورة تطالب بحقوق الإنسان ، دون أن تُسير مظاهرة تنادي بحقّ الفقراء في أموال الأغنياء ، أو بحقّ الضعفاء على الأقوياء ، أو بحقّ المرأة على الرجل ، أو بحقّ المحكوم على الحاكم .

لم تحدث ثورة ، ولم تحدث مطالبة ، ولكن دون أن يطالب الناس فإنّ ربّ الناس . . . ملك الناس . . . إله الناس ، هو الذي قرّر لهم هذه الحقوق .

قرّرها من أوّل يوم ، أوّل آيات نزلت في القرآن عُنيّت بالإنسان ، ورفعت من شأن الإنسان : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ الْقَلَمَ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) ، منذ هذه السطور الأولى في كتاب الله عزّ وجل ارتفع شأن الإنسان .

الإنسان في الإسلام له شأن أى شأن ، وهذا أساس من أسس تثبيت حقوق الإنسان .

حقوق الإنسان في الإسلام تقوم على دعامتين أساسيتين :

١ - عقيدة التوحيد :

الدعامة الأولى : هي عقيدة التوحيد ، كلمة (لا إله إلا الله) ، هذه الكلمة إيذان بعالم جديد ، بميلاد جديد للإنسان ، تحرير للإنسان من العبوديّة ، وخصوصاً

(٢) العلق : ١ - ٥ .

(١) المعارج : ٢٤ ، ٢٥ .

من عبودية البشر للبشر ، لم يعد هناك إنسان يستعبد إنساناً ، ولم يعد هناك حق لإنسان أن يؤله إنساناً .

كيف تؤله من هو مثلك . . . من خلق من تراب مثلك ؟ ويعود إلى التراب مثلك ؟ ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ (١) .

كيف تؤله إنساناً أنت مثله ؟ أو كيف تستعبد إنساناً هو مثلك !

إنما هي الأخوة العامة ، الناس جميعاً إخوة ، أبناء أب واحد ، وعبيد لرب واحد ، وهذا ما أعلنه النبي ﷺ على الملأ ، على مرأى ومسمع من الجموع المحتشدة ، التي تطهرت ولبست ملابس إحرامها لله ، في تلك الساحة المقدسة في حجة الوداع .

أعلن النبي ﷺ ميثاق حقوق الإنسان الأول ، حينما نادى في الشهر الحرام والبلد الحرام : أيها الناس : « . . . فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا . . . » (٢) : لا يحل لأحد أن يعتدي على دم أحد . . على حياة أحد . . على مال أحد . على عرض أحد . « يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى . . . » (٣) ﴿ . . . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٤) .

في حجة الوداع ، وأمام هذه الجموع الهائلة ، أبلغ النبي بلاغه الأخير للناس ، قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى : إن الرب واحد ، والأب واحد ، وأن

(١) طه : ٥٥ ، وتتمتها : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ .

(٢) جزء من حديث أبي بكرة الذي أخرجه مسلم في صحيحه في باب : « تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال » . أنظر : (صحيح مسلم بشرح النووي : ١١ / ١٧٠) ط . دار الفكر .

(٣) رواه أحمد عن أبي نضرة قال : حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق ، قال عنه الألباني في « غاية المرام » : هذا إسناد صحيح ، وجهالة الصحابي لا تضر كما هو معلوم ، ولذلك قال ابن تيمية في « اقتضاء الصراط المستقيم » ص ٦٩ : إسناده صحيح .

(٤) الحجرات : ١٣ .

الدماء والأعراض والأموال مصنونة ، لا يجوز أن يُعتدى عليها ، وأن الناس سواسية كأسنان المشط .

فُررت حقوق الإنسان بناءً على أن الناس عبيد لرب واحد .

عقيدة التوحيد إذن هي الأساس الأوّل لتقرير حقوق الإنسان ، لم يعد هناك مجال لفرعون من الفراعنة ، يقول للناس : أنا ربكم الأعلى ، ولا لنمروذ من النماريذ يقول : أنا أحي وأميت ، ويقتل رجلاً بغير حق ويقول : قد أمته ، ويحكم على رجل بالاعدام ثم يعفو عنه ويقول : ها قد أحييته .

لم يعد هناك مجال لفرعون ونمروذ ، إنما المجال الآن للراكعين الساجدين الموحدين ، الذين يعلنون في كل حين : أشهد أن لا إله إلا الله ، الألوهية لله وحده .

هذه الحقيقة هي بداية تحرير للإنسان ، من ظلمات القرون وظلم القرون .

كان النبي ﷺ يختم رسائله إلى الملوك والأمراء - قيصر والنجاشي والمقوقس ، وغيرهم من ملوك النصارى ورؤسائهم - بهذه الآية : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ ۚ ﴾ (١) .

ليس هناك أحد يمكن أن يكون رباً لأحد ، ولا لأحد أن يكون عبداً لأحد ، العبودية المدنية المعروفة لا تعنى الخضوع المطلق ، لا ، العبودية الحقيقية إنما هي لله وحده .

هذا هو التوحيد الذي جاء به الإسلام .

٢ - تكريم الإنسان :

ثم كانت هناك الدعامة الثانية : وهي تكريم الإنسان .

الإسلام كرم الإنسان : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ۚ ﴾ (٢) من حيث هو آدمي ، من حيث هو إنسان .

(١) آل عمران : ٦٤ . (٢) الإسراء : ٧٠ .

كرّمه بعدة أشياء :

(أ) استخلفه في الأرض ، جعله الله في الأرض خليفة ، وهى منزلة رنت إليها الملائكة ، وشرّبت إليها أعناقهم ، وتمنّوا أن يكونوا هم أصحاب هذا المنصب ، فقال لهم : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . ﴿ (١) ، وهىّاه ليقوم بهذا الدور : الخلافة في الأرض .

(ب) كرّم الله الإنسان بأن صوّره فأحسن صورته : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٢) . . وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ . . ﴿ (٣) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ * الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿ (٤) .

(ج) ثمّ زاد على ذلك بشيء أكبر وأعظم وأعمق ، هو أنّه ميز الإنسان بذلك العنصر الروحي ، الذي جعله مخلوقاً متفرداً متميّزاً على غيره .

الإنسان ليس هو هذا الغلاف الطينى ، ليس هو هذا الهيكل من العظام والدماء واللحم والأعصاب والخلايا والأجهزة ، هذه يشترك فيها مع الحيوان ، إنّما هو ذلك السرّ المخبوء داخل هذا الغلاف ، الذي أشار إليه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٥) .

نفخة الروح هي التي جعلت الإنسان إنساناً ، واستحقّ بها أن تسجد له الملائكة .

هذا هو العنصر الروحي .

الإنسان حيوان عند الغربيين :

ولذلك ليس الإنسان حيواناً كما يقول الغربيون من قديم ، اليونانيون من قديم قالوا : الإنسان حيوان ناطق ، أي : مفكّر ، والاجتماعيون المحدثون يقولون عنه : حيوان اجتماعي ، والماركسيون يقولون : هو حيوان منتج ، والتطوريون يقولون : حيوان متطور .

(٢) التين : ٤ .

(١) البقرة : ٣٠ ، ٣١ .

(٤) الانفطار : ٦ ، ٨ .

(٣) التغابن : ٣ .

(٥) الحجر : ٢٩ ، سورة ص : ٧٢ .

على أيّ حال هو حيوان عند هؤلاء وأولئك ، وإن كان حيواناً موصوفاً بصفة من الصفات .

الإنسان مخلوق متفرد ، ليس حيواناً ولا إلهاً :

ولكن الإنسان في الإسلام ليس حيواناً ، كما أنه ليس إلهاً .
هناك من آله الإنسان ، وهناك من هبط به إلى درك الحيوانية .

الإنسان ليس حيواناً ، وإن اشترك مع بعض الحيوانات في الصفات ، كما أن الحيوان يشترك مع النبات في بعض الصفات ، ولكننا لا نعرف الحيوان فنقول : هو نبات متطور ، لا ، فالحيوان غير النبات ، والإنسان غير الحيوان ، والنبات غير الجماد ، وإن كان الجميع يشترك في صفات بعضها تتميز عن بعض .

الإنسان مخلوق متفرد :

ومن الأشياء التي ميز الله بها الإنسان وكرّمه : أنه سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه .

سخر له كلّ ما في الوجود : العالم العلوي ، والعالم السفلي ، الشمس والقمر والنجوم ، والبحار والأنهار ، والجبال والأشجار ، كلّ هذا الكون مسخر لخدمة الإنسان . . . لمنفعة الإنسان : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ * وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا . . . ﴿ (١) .

الكون مسخر للإنسان ، وهذا يفيد فائدتين :

الفائدة الأولى : إنّ الطاقات الكونية كلّها مبذولة للإنسان ، يستطيع أن يسخرها لخدمته : الطاقة الشمسية . . الطاقة الترايية . . المائية . . المعدنية . . الهوائية . . الضوئية ، كلّها مسخرة للإنسان .

الفائدة الثانية : أنّ هذا الكون المسخر للإنسان ، لا يجوز أن يعبد الإنسان ، كما فعلت شعوب وأمم قديماً وحديثاً ، تعبد قوى من الطبيعة هي مسخرة لها ، قلبوا الحقائق ، الإنسان المخدوم أصبح خادماً ، والمتبوع أصبح تابعاً ، والسيد أصبح عبداً ، الذي سُخِّرَ له هذه الأشياء أصبح يعبد هذه الأشياء !

(١) إبراهيم : ٣٣ ، ٣٤ .

الإنسان - بهذا المفهوم الإسلامي - أصبح جديراً أن تكون له حقوق ، وأن تكون له مكانة ، وأن تكون له كرامة تُرعى ، فلا يجوز لأحد مهما يكن قدره ، أن يهين هذا الإنسان ، أو يستعبد هذا الإنسان .

حقوق الإنسان منذ المرحلة الجنينية :

الإسلام جاء ليحترم الإنسان ، وليكرم الإنسان ، من حيث هو إنسان ، منذ يولد وإلى أن يموت ، بل قبل أن يولد له حقوق تُرى وهو جنين في بطن أمه .
من أجل ذلك حرّم الإسلام الاعتداء على الجنين ، حتى الأم التي تحمل هذا الجنين ليس لها أن تتصرف في جنينها بالإجهاض ونحوه ، كما ينادي بذلك كثير من الغربيين المعاصرين وتلاميذهم في ديارنا .

لم يُجز الإسلام للأب - بحال من الأحوال - أن يقتل ابنه أو ابنته من إملاق ، أو خشية إملاق ، كما كان يفعل العرب في الجاهلية ، وخصوصاً مع البنات ، فقد كانوا يتخلّصون منهم بالوَأَد (دسّها حية في التراب) ألا ساء ما يحكمون ! ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (١) .

ولم يُجز الإسلام للأم أن تجهض جنينها ولو جاء من حرام .

المرأة الغامدية المعروفة التي جاءت تطلب من النبي التطهير بإقامة الحدّ عليها ، بعد أن ارتكبت الفاحشة ، وتقول : يا رسول الله طهرني ، أقم عليّ حدّ الله ، فأنا حبلى من الزنى ، فلم يرض النبي ﷺ أن يقيم عليها الحدّ وقال : « فاذهبي حتى تلدى » أى أنه إن كان لنا سبيل عليك ، فليس لنا سبيل على ما في بطنك ، ما ذنب هذا الكائن الحى ؟ إنّه مخلوق محترم ، لم يجن ولم يذنب ، ولا يحمل وزر غيره .

ثمّ تذهب وتأتي به بعد الولادة فيقول : « اذهبي فأرضعيه حتى تطفميه » (٢) .

هذا هو الإسلام ، يرفع الإنسان منذ هو جنين في بطن أمه ، كما يرفعاه بعد موته ، حيث يوجب غسله وتكفينه والصلاة عليه ، ودفنه ، وتنفيذ وصاياه ، وقضاء

(١) التكوير : ٨ ، ٩ .

(٢) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه ، باب : « حدّ الزنا » .

ديونه قبل توزيع تركته ، وحرم التمثيل بجثته (تشويهها) ولو في الحرب ، كما حرم كسر عظمه ^(١) ، وأمر ألا يذكر الموتى إلا بخير ، فقد أفضوا إلى ما قدموا ^(٢) .

رعاية الإنسان من حيث هو إنسان :

الإسلام يرعى الإنسان من حيث هو إنسان ، في أي أرض كان ، فلا اعتبار بالأقاليم ، من أي لون كان ، أبيض أو أسود ، فالقيمة للإنسان من داخله وليست بلون جلده ووجهه .

يرعى الإنسان بأي لغة يتكلم : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلَقَ لَكُمْ أَلْسِنَتَكُمْ وَالْوَاكِنُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ ^(٣) .

يرعى الإنسان من أي طبقة كان ، من طبقة الأغنياء أم من طبقة الفقراء ، من طبقة الخاصة أم من طبقة العامة .

بل ليس في الإسلام طبقات ، كما كان الناس في أوربا قديماً - هناك طبقة النبلاء ، وطبقة الفرسان ، وطبقة رجال الدين . . . الخ ، طبقات ثورث ، ولكل منها حقوق تظل ثابتة لا تتغير - وكما كان الناس في فارس ، وفي الهند قديماً وإلى اليوم ، ليس في الإسلام شيء من ذلك .

الناس سواسية ، من حيث الكرامة الإنسانية الكل سواء ، حتى اختلاف الدين لا يؤثر في الكرامة الإنسانية العامة ، وقد روى البخاري عن سهل بن حنيف وقيس

(١) روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « كسر عظم الميت ككسره حياً » رواه أبو داود ، وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير . وانظر تعليق الشيخ عليه في كتابه : (المتقى : ٢ / ٩١٩ برقم ٢٢٣٥) .

(٢) روى البخاري وأحمد من حديث عائشة : « لا تسبوا الاموات ، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا » ، وروى النسائي من حديث عائشة أيضاً : « لا تذكروا هلكاكم إلا بخير ، إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه » رمز له السيوطي بالحسن ، وقال الحافظ العراقي : إسناده جيد (فيض القدير للعلامة المناوي ، الحديثان : ٩٧٦٥ ، ٩٧٨٢) ، والمراد بالاموات : المسلمون منهم ، فيحرم سبهم ، إلا لمصلحة شرعية ، كسب أهل البدع والفسقة والظلمة للتحذير من الاقتداء بهم ، وكجرح الرواة وبيان حالانهم .

(٣) الروم : ٢٢ .

ابن سعد : « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهَا جَنَازَةٌ يَهُودِيٍّ { أَرَادُوا أَنْ يَعْرِفُوهُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ } فَقَالَ : أَلَيْسَتْ نَفْسًا ؟ » (١) . بلى ، ولكل نفس في الإسلام حرمة ومكان .

من هنا رعى الإسلام كرامة الإنسان حيًّا وميتًا :
رعى الإنسان حيًّا : بحفظ ماله ، وحفظ دمه ، وحفظ عرضه ، لا يجوز أن يُهان في حضرته ، أو يتكلم عنه بسوء في غيبته .
ورعاه ميتًا فقال : « لا تذكروا هلكاكم إلا بخير » (٢) « لا تسبوا الأموات ، فإنهم أفضلوا إلى ما قدموا » (٣) .

حقوق الإنسان في الإسلام : فرائض وضروريات :

جاء الإسلام يحافظ على حقوق الإنسان كلها ، حقوق المادية والمعنوية ، الدينية والدنيوية ، العقلية والجسمية ، واعتبر هذه الحقوق من الضروريات الخمس أو الست التي جاءت الشريعة للمحافظة عليها ، وهي : الدين ، والنفس ، والعقل ، والنسل ، والمال ، والعرض .

إنَّ ما يعدّه الغرب حقوقاً يعدّه الإسلام واجبات وفرائض ، وهذا أوثق وأؤكد ، فحقّ الإنسان يمكنه أن يتنازل عنه ، أمّا واجبه المفروض عليه من ربه ، فيلزمه أن يراعيه ويقوم عليه ولا يفرّط فيه .

إذا كان التعلّم حقًّا للإنسان في الغرب ، فهو واجب على الإنسان المسلم ، الذي يعلمه الإسلام أنَّ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة .

(١) . رواه البخاري في كتاب : « الجنائز » باب : « من قام لجنازة يهودي » ، ومسلم في كتاب : « الجنائز » باب : « القيام للجنازة » .

(٢) . رواه النسائي عن عائشة رضی اللہ عنہا ، ورمز له السيوطي بالحسن (الجامع الصغير : ٢ / ٢٠٠) وجوّد الحافظ العراقي إسناده ، وتتمته : « إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا ، وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه » . ويستثنى من النهي ما تمس الحاجة إلى ذكره ، كجرحهم في شهادتهم وروايتهم ، أو تحذير من بدعتهم وفساد طريقتهم ، كما أوضح العلامة المناوي (فيض القدير : ٦ / ٣٩٤ برقم ٩٧٦٥) .

(٣) . رواه البخاري في كتاب الجنائز ، وابن حبان في صحيحه ، من حديث عائشة رضی اللہ عنہا (المتتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٩٠٢ برقم ٢١٩٥) .

وإذا كان نقد المخطيء أو المنحرف حقاً للإنسان في الغرب ، فهو واجب على الإنسان المسلم ، فهو يدخل في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتواصي بالحق ، كما يدخل في باب النصيحة التي جعلها الرسول الكريم الدين كله ، لأئمة المسلمين وعامتهم .

وإذا كانت مقاومة الظلم حقاً للإنسان في الغرب ، فهي واجب على الإنسان المسلم وعلى المجتمع المسلم : « إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمَّهُم الله بعقاب من عنده » (١) .

وإذا كان لجوء المضطهد المظلوم من بلده إلى بلد آخر يأمن فيه حقاً للإنسان في الغرب ، فهو واجب على الإنسان المسلم إذا استطاع إليه سبيلاً ، اسمع قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ، قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسَعَةَ فُتْهَا جَرُّوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (٢) .

يوجب الإسلام على المسلم أن يدافع عن حقه ، ولا يرضى بهوان نفسه ، ولا يفرط في كرامته وكرامة أهله ، ولا يستسلم للظلم إلا من عجز وضعف ، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وفي الحديث : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ، قالوا : يا رسول الله ، وكيف يذل نفسه ؟ قال : يتعرّض للبلاء بما لا يطيق » (٣) .

(١) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه ، والنسائي ، وابن حبان في صحيحه ، ورواه أحمد أيضاً في مسنده ، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه . (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٤٣ برقم ١٣٧٥) .
(٢) النساء : ٩٧ - ٩٩ .

(٣) أخرجه الترمذي وصحّحه ، وابن ماجه ، من حديث حذيفة ، وقال البغوي : هذا حديث حسن غريب ، وفي سننه : علي بن زيد وهو ضعيف ، والحسن مدلس وقد عنعن ، لكن له شاهد يتقوى به من حديث ابن عمر أخرجه الطبراني في الكبير ، ورجاله ثقات (شرح السنة للبغوي بتحقيق الأرنؤوط : ١٣ / ١٧٩ برقم ٣٦٠١) (الإحياء بتخريج العراقي : ١ / ٤٦) .

بهذا ارتقى الإسلام بحقوق الإنسان وحمل الفرد والمجتمع المحافظة عليها ،
والمحاربة عنها ، وحمل الأمة المسلمة عبء الدفاع عن المستضعفين المضيعة حقوقهم ،
ولو كان ذلك بإعلان الحرب ، وشن القتال ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا
تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا
وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ۝ ﴾ (١) .

بين النظرية والتطبيق :

هذا ما جاء به الإسلام ، وطبقه المسلمون تطبيقاً عملياً ، ولم يكن مجرد
فلسفة مجردة ، أو أفكار نظرية ، أو أحلام طوباوية ، كجمهورية أفلاطون ومدينة
الفارابي !

في المسجد نجد الكلّ سواسية ، في الحجّ الجميع سواسية ، أذاب الإسلام
بشاعره كلّ الفوارق التي تميز الناس بعضهم من بعض .

الراشدون من حكام المسلمين لم يفرقوا بين أحد وأحد ، فالنبي ﷺ وضع
لهم القاعدة : « . . وأيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (٢) .

عمر والأمير الغساني :

هذا عمر بن الخطاب يسوي بين أمير وسوقة ، حينما وطئ الأعرابي ثوب ذلك
الأمير الغساني - جبلة بن الأيهم - وهو يطوف بالكعبة ، وقد أسلم حديثاً ، فلما
داس على طرف رداءه التفت إليه ذلك الأمير - وكان لا يزال به شيء من كبر
الجاهلية - فلطمه على وجهه ، فذهب الرجل إلى الخليفة عمر يشكر ذلك الأمير ،
فقال عمر : لطمه بلطمة ، أو يعفو ويصفح .

(١) النساء : ٧٥ .

(٢) متفق على صحته من حديث عائشة رضی اللہ عنہا ، ونصه كاملاً : أن قريشاً أهمهم شأن
المرأة المخزومية التي سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن
يجترأ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ، فكلمه أسامة ، فقال رسول الله
ﷺ : « أتشفع في حد من حدود الله » ثم قام ، فاخطف ، ثم قال : « إنما أهلك الذين
قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ،
وأيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (شرح السنة للبخاري : ١٠ / ٣٢٨
برقم ٢٦٠٣) .

قال : يا أمير المؤمنين : أتسوي بيني وبينه وأنا ملك وهو سُوقَة ؟! فقال له :
إنّ الإسلام قد سوى بينكما ، إمّا أن يلطمك كما لطمته ، وإمّا أن ترضيه ، قال :
سأحاول أن أرضيه .

ولكن الرجل بيّ في نفسه أمراً وفرّ بليل ، وخرج من المدينة إلى بلاد أخرى
مرتداً ، والعياذ بالله ، آثر أن يبقى على عنجهيته ، وإن عاد إلى الكفر ، ولم يقبل
أن يقتص منه ، ولم يبال عمر رضي الله عنه به .

بعض الناس يقول : ألم يكن من الأولى أن يتساهل عمر في هذه القضية
ونكسب هذا الأمير ؟ لا ، خسارة شخص ولا خسارة مبدأ ، ليذهب إلى الجحيم ،
يعوّض الله الإسلام غيره آلافاً وآلافاً ، ولكن مبدأ المساواة - وأن لكلّ إنسان أن
يطالب بحقه إذا ظلم - أعظم من ذلك الأمير الذي ارتدّ وكفر .

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ :

وكلّنا يعرف تلك القصة ، قصة عمر مع عمرو بن العاص وابنه الذي ضرب
ذلك القبطي المصري بغير حقّ ، وذهب الرجل وابنه من مصر إلى المدينة - كم عانى
وكم تعب حتى وصل إلى هناك ؟! - وشكا عمرو وابنه إلى عمر .

وأحضر عمر عمرو وابنه ، وقال للرجل : اضرب ابن الأكرمين - لأنّ
ابن عمرو بن العاص كان يقول لابن القبطي وهو يضربه : أنا ابن الأكرمين ! - ثم
قال له : أدرها على صلعة عمرو ، فما ضربك ابنه إلّا بسلطانه ، فقال : يا أمير
المؤمنين : إنّما اضرب من ضربني ، ثمّ التفت عمر إلى عمرو وقال له كلمته التاريخية
التي تحفظها ويحفظها التاريخ : متى استعبدتم الناس يا عمرو ، وقد ولدتهم أمهاتهم
أحرارا ؟!

كلمة عمر - التي قالها على البديهة - أصبحت تفتتح بها موثيق وإعلانات
حقوق الإنسان اليوم : إنّ الناس يولدون أحراراً متساوين ^(١) .

العبرة الكبيرة هنا : ما الذي جعل هذا القبطي يجوب الفياقي والقفار ، راكباً

(١) جاء في المادة (١) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان : «يولد جميع الناس أحراراً
متساوين في الكرامة والحقوق ، وقد وهبوا عقلاً وضميراً ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً
بروح الإخاء » نقلاً عن كتاب (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة)
للشيخ محمد الغزالي رحمه الله .

جمله أو دابته حتى يصل إلى المدينة ؟ لقد كان هو ومواطنوه والآلاف من أمثاله في مصر - في عهد الرومان المسيحيين أمثالهم - يُضربون ويُهانون ويُحبسون ويُقتلون وتراق الدماء أنهاراً، في عصور سُميت: عصور الشهداء ، ولم يكن يرفع أحد رأسه .
ما الذي حرك هذا الرجل حتي قطع هذه المسافة الطويلة ؟ .

لا شيء إلا اعتقاده أن هذا دين جديد ، جاء ينصف الناس ، ويقيم عدل الله بينهم ، ولا يقيم فوارق بين العباد ، اعتقاده هذا هوّ عليه المتاعب وبُعد الشقة ، فلم يعبأ بالمعاناة ووعثاء السفر ، وفراق الأهل والوطن ، من أجل أن يأخذ حقه .
هذا ما جاء به الإسلام ، وهو غرة في جبين الإنسانية .

الحضارة الغربية وحقوق الإنسان :

الحضارة الغربية اليوم تُعلن حقوق الإنسان ، وهي - حقيقة - تُعنى بحقوق الإنسان في ديارها ، الإنسان هناك محترم أي احترام له حقوق ، له كرامة ، كل إنسان يعرف حقوقه التي ينصّ عليها الدستور ، ويحافظ عليه القانون ، وتقوم على رعايتها السلطة .

في داخل بلادهم كلّ الحقوق مرعية - فيما عدا قضية التمييز العنصري ، واحتقار الملونين - ولكنهم إذا خرجوا من تلك البلاد لا يراعون لأحد حقاً .
في هذه الأربعين سنة التي مضت على إعلان حقوق الإنسان ، كم انتهكت حرّمات ، كم سُفكت دماء ؟ كم انتهبت أموال ؟ كم شُرّد أناس من أوطانهم وخصوصاً في أوطاننا نحن المسلمين ؟ ما أكثر الذين أودوا وشُرّدوا ، شُرّد شعب بكامله من أرضه في فلسطين ، شُرّدت شعوب إسلامية من أوطانها .
هناك من المسلمين ملايين وعشرات الملايين مشرّدين في أنحاء العالم . . من بورما ، من أريتريا ، من الصومال . . من أقطار شتى يحكمها طغاة مستبدّون ظالمون .

الغرب وراء هذه المظالم كلّها :

أليس هؤلاء هم الذين يؤيدون غارات ما يسمّى (إسرائيل) على لبنان إلى العهد الأخير ؟ ومظالم تلك الدولة المعتصبة مع أطفال الحجارة ، مع أولئك الأشبال الأطهار ؟

أليس هؤلاء وراء كلّ مظلمة ؟

نحن المسلمين أصبحت دماؤنا أرخص الدماء في الأرض ، وأصبحت أرضونا
نهباً لكل طامع .

حقوقنا أين هي ؟

الإنسان في عصر حقوق الإنسان أصبح في كثير من البلاد مضيّعاً .
لقد أعلنت منظمة العفو الدولية أنّ حوالي ثلث العالم يعيشون مضطهدين من
حكومات ظالمة لا ترعى حقوقهم ، وهذه مصيبة كبرى .
أناس يُحكمون بغير إرادتهم ، أناس سُلّطوا على أناس لا يستطيعون التخلص
منهم ، هذه هي مصيبة العالم الذي يدعى حقوق الإنسان .
كم في السجود من أبرياء ؟ كم هناك من أناس تُمزق أجسادهم السياط ؟ كم
هناك من أناس يُعانون من مظالم الفراعنة الجدد ، في عصر يُحتفل فيه بحقوق
الإنسان ؟

ونحن المسلمين كم نُعاني ونُعاني من جرّاء هذه المظالم ؟ ولا يمكن أن ننال
حقوقنا إلّا أن نتزعها من برائن الوحوش ، من أيدي أولئك المغتصبين .
لا يستطيع أحد أن ينال حقّه إلّا بالكفاح ، إلّا بالجهاد ، فما أخذ بالقوّة لا
يُستردّ إلّا بالقوّة ، ولا يفلّ الحديد إلّا الحديد .

في عصر حقوق الإنسان نبكي نحن المسلمين علي ديار وأوطان هنا وهناك
مضيّعة ، وعلى إخوة لنا يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء ، كما كانوا يعلموننا قديماً
في علم الإنشاء .

نبكي على إخوة لنا هنا وهناك ، يطالبون بحقوقهم ولا يجدون نصيراً .
لو أنّ إنساناً غربياً أصاب ظفره شيء ، أو اختطف ، أو سُرق ، لقامت الدنيا
ولم تقعد ، ولكنّ الملايين ممّا نحن العرب والمسلمين يُعانون ما يُعانون ولا يكاد يلتفت
إليهم أحد .

أهذا هو عالم حقوق الإنسان ؟

أين حقوق الإنسان أيّها الناس في عصر يأكل الأقوياء فيه الضعفاء . . غابة
يفترس القويّ فيها الضعيف . . بحر يأكل السمك الكبير فيه السمك الصغير ؟
لا مكان إلّا لمن يأخذ حقّه بيده ، فلنقو أنفسنا ، ولنعدّ العدة ، ولنحرص على
أن نكون نحن المسلمين في ديارنا مثلاً للحقوق التي يجب أن تُرعى .

كم في ديار المسلمين من حقوق تُهضم بأيدي المسلمين؟! لا يجوز أن نعيب على الغرب أنه يضيع حقوقنا ، ونحن في ديارنا مضيعو الحقوق ، يأكلها مواطنون لنا ، كل إنسان يقول : نفسي .. نفسي ، يقول : لي .. لي ، ولا يقول - يوماً ما - : عليّ .

هذه هي الآفة ، وهذه هي الكارثة ، ولا نجاة لنا إلا بالعودة إلى الإسلام ، التزام بالحقوق ، والتمزام بالواجبات ، كما شرعها الله ، وكما جاء بها محمد رسول الله ﷺ .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

ادعوا الله تعالى يستجب لكم .

* *

• الخطبة الثانية :

أما بعد فيا أيها الإخوة :

فلنذكر ضعف الإنسان :

إذا كنّا تحدثنا عن حقوق الإنسان ، فينبغي أيضاً أن نذكر هذه الأيام ضعف الإنسان .. الإنسان الذي طغي في هذا العصر ، وظنّ أنه سيطر على شيء ﴿ .. حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ (٢) ، ثم تأتي الأحداث وراء الأحداث ، لتعلم الإنسان أنه مخلوق ضعيف : ﴿ .. وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٣) .

أيها الإنسان ما أنت ؟ أنت حفنة من التراب ، تتغذى مما يخرج من التراب ، ثم توارى أخيراً في التراب ، ترابٌ يمشي علي تراب .

أيها الإنسان المتأله ما أنت ؟ لو أنّ السماء تمسك أمطارها عنك هل تستطيع أن

(٢) يونس : ٢٤ .

(١) آل عمران : ١٤٧ .

(٣) النساء : ٢٨ .

تفعل شيئاً ؟ ماذا تستطيع إذا لم تنزل عليك قطرات الماء ؟ كان الناس قديماً يقولون :
النيل عندنا في مصر يُغينا عن أمطار السماء ، فلما شحّت الأمطار في أفريقيا لم
يستطع الناس أن يفعلوا شيئاً ، ثمّ لما زادت الأمطار أصبح الناس يشكون الفيضان ،
الفيضان يغرق ويدمر في السودان . . في باكستان . . في بنغلادش .

ماذا تصنع أنت أيّها الإنسان ؟

ثمّ انظر أخيراً إلى ضعف الإنسان في الاتحاد السوفيتي الذي يملك القدرات
العلميّة ، والإمكانات التكنولوجيّة ، والصواريخ والأقمار الصناعيّة ، والسفن
الفضائيّة ، رغم هذا كلّّه ، ماذا صنع السوفييت أمام هزة أرضيّة . . زلزلة استمرّت
ثواني معدودات ؟ ! فإذا بها تجعل عالي المدن سافلها ! ثمان وأربعون قرية دُمّرت على
من فيها !

أين العلم ؟ أين الصواريخ ؟ أين الأقمار ؟ أين سفن الفضاء ؟ أين المخزونات
التويّة ؟ أين . . أين ؟

الإنسان ضعيف أمام هذا كلّّه .

اعتبر أيّها الإنسان ، واذكر بهذا أنّ هناك زلزلة أكبر من هذه الزلزلة : ﴿ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ
مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى
وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

اللّهُمَّ نَبِّهْنَا من سكرتنا ، وأيقظنا من غفلتنا ، وتب علينا توبة نصوحا .

اللّهُمَّ أعِنَّا على شهوات أنفسنا ، وأصلح فساد قلوبنا .

اللّهُمَّ ارح أوطاننا وديارنا .

اللّهُمَّ ردِّنا إلى الإسلام رداً جميلاً .

اللّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ العفو والعافية في ديننا ودنيانا ، وأهلينا وأموالنا .

اللّهُمَّ استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا ،

وعن أيمننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا .

(١) الحج : ١ ، ٢ .

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهم انصر إخواننا المجاهدين في سبيلك في فلسطين ، وفي أفغانستان ، وفي أريتريا ، وفي الفلبين ، وفي كل مكان من أرض الإسلام .

اللهم أيدّ إخواننا المضطهدين والممتحنين ، اللهم أفكك بقوتك أسرهم ، وأجبر برحمتك كسرهم ، وتولّ بعنايتك أمرهم .

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام ، اللهم ردّ عنا كيدهم ، وغلّ حدهم ، وأدل دولتهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

عباد الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

* * *